

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من غزوة الغابة (ذي قرد)

١ - غيرة المسلم على دينه وعرضه:

يقول أ/ رضوان: «وقد دلل الرسول ﷺ بخروجه في هذه الغزوة في سرعة مذهلة، وحزم كامل، على يقظة المسلمين، وعلى أن دفاع المسلم عن ماله وعرضه من أعظم أنواع الجهاد».

[محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٩٩].

٢ - أهمية اختيار القادة ذوي القدرات:

يقول د/ الحميدي: «هذه القصة الرائعة تعتبر مثالاً حياً للحروب السريعة الخاطفة، التي تعتمد على انتهاز الفرص المناسبة وسرعة الحركة والمهارة الحربية، فما هي المؤهلات التي أهلت هذا البطل المغوار سلمة بن الأكوع السلمي ﷺ لتحقيق هذه النتائج السريعة المذهلة؟!

إذا عدنا إلى سياق القصة وواقع حياة الصحابة نجد أن هذا البطل يتصف أولاً بالإيمان القوي بالله تعالى ورسوله ﷺ، ومن أجل هذا الإيمان يبذل كل طاقته التي وهبها الله تعالى له، فبينما نجد الأربعة الذين صعدوا إليه حتى قربوا منه ينحدرون سرعاً منهزمين أمامه، نجده يقف لهم صامداً ويهددهم، ولا شك أن هؤلاء الأربعة من شجعان قومهم، إذ أنه لا يبرز عادة في مثل هذه المواطن إلا الشجعان، ولكنهم لم يبذلوا من طاقتهم إلا القليل؛ لأن الذي من أجله يُقدمون على القتال هو الحصول على المال والجاه في هذه الحياة الدنيا، وهذا الهدف ينعدم وجوده إذا قُتلوا، فلماذا يبذلون كل طاقتهم والحال أن ذلك يعرضهم لخطر الموت، فيفوت عليهم الهدف الذي من أجله خرجوا وقاتلوا؟

أما الذين يؤمنون بالله تعالى ورسوله ﷺ واليوم الآخر فإنهم لا يقاتلون من أجل الجاه والمال في هذه الحياة الدنيا، ولكنهم يقاتلون لهدف أسمى وأجل، يقاتلون ابتغاء مرضاة الله تعالى والسعادة الأخروية؛ ولذلك رأينا هذا البطل يغامر بنفسه ويركب الأهوال؛ لأنه يؤمل في الظفر بإحدى السعادتين: إما الفوز في الحياة الدنيا وفي ذلك إعزاز للإسلام وحماية للمسلمين، وإما الظفر بالشهادة في سبيل الله تعالى.

وفي هذا المعنى يقول الله تعالى موجهاً عباده المؤمنين: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة].

ونجد هذا الصحابي الجليل يتمتع ثانياً بالشجاعة النادرة فهو في هذه المعركة لإيهاب الأعداء وإن كانوا سرية كاملة.

ونجده بعد ذلك يتمتع بتدريب عالي المستوي من الرياضة البدنية، فهو يعدو سريعاً للحاق بالعدو على قدميه طول النهار، وفي أرض جبلية وعرة، فأى تدريب هذا الذي تلقاه هذا البطل؟!

ونجده يتمتع بالصبر وقوة الاحتمال، فقد ظل يوماً كاملاً مصابراً للعدو متبعا له حتى ضاق به عدوه ذرعاً فوقفوا لأخذ الراحة وتناول الطعام، فوقف لهم بالمرصاد فوق الجبل حتى يحول بينهم وبين العودة إلى أخذ ما تخففوا منه من سلاحهم وما انتهبوه، حتى قدم الصحابة ﷺ. ونجده كذلك بارعاً في المهارة الحربية، وذلك في سرعة التنقل بين الظهور والاستخفاء حسب احتياجات المعركة.

ونجد أن مما ساعده على الظفر بأعدائه والمقدرة على إجلائهم أنه كان رامياً ماهراً في الرماية، فقلما أخطأ له سهم، وذلك وقر أسهمه للنكاية بأعدائه، وحينما دخلوا في مضائق الجبل ووجد أن سهامه لاتصل إليهم استعمل سلاحاً آخر يثيرهم ويزعجهم حيث علاهم فوق الجبل وصار يقذفهم بالحجارة. وأخيراً في مواقف سلمة بن الأكوع ﷺ قيامه بمسابقة ذلك الرجل الأنصاري في عودتهم إلى المدينة، وقد شرح في كلامه الطريقة المثلى في العدو، وفاز في المسابقة مع أنه كان يعدو يوماً كاملاً، فأى لياقة بدنية كان يتمتع بها هذا الصحابي الجليل ﷺ!!!]. [التاريخ الإسلامي للحميدي ١٥/٧-١٧].

ويقول د/ العفاني: «فيا لبدیع صنع ابن الأكوع ﷺ يطارد جيشاً بمفرده حتى يسترد منهم ما سلبوه، وهو راجل، بل ويأخذ منهم السلب والغنيمة، ولا يسمح لهم حتى يشرب الماء!! وعلى النقيض، تطارد ملايين العرب شرذمة من اليهود، تأخذ منهم كل شيء، ولا تبقي لهم إلا العطش، تأخذ أعلى مقدساتهم، ولا تعطيهم إلا الذبح، وهتك الأعراس، وبقر البطون، ومع هذا فالمسلمون نائمون، ومن لم توقظه النواذب وتعلي همته، فليطل نومه».

[صلاح الأمة في علو الهمة للعفاني ٣/٣٦٥].

٣ - الإيجابية الذاتية لدى المسلم:

فقد أسرع سلمة بن الأكوع ﷺ إلى مطاردة المعتدين، بعد أن أرسل إلى الرسول ﷺ في المدينة بما حدث.

٤ - تربية المسلم على اللياقة البدنية (قوي الجسم):

قوة سلمة بن الأكوع ﷺ الجسدية، ومهارته الرياضية مكنته من مطاردة المعتدين. وهذا يشير إلى أهمية اهتمام المسلم بأن يحافظ على قوة جسمه، فالجسم هو الوسيلة لبلوغ الأهداف السامية، فالعبادات، وجميع الأعمال، والفكر الصحيح، والعقل السليم، إنما تكون في الجسم السليم، فعلى المسلم أن يأخذ نفسه بأسباب الصحة والإعداد والقوة، فالمسلم القوي أحب إلى الله من المسلم الضعيف.

٥ - إرخاص النفوس في سبيل الله تعالى:

يقول د/ الحميدي: «وفي ثنايا هذا الخبر نجد موقفاً للصحابي الجليل الأخرم الأسدي ﷺ، وذلك في قوله: «يَا سَلَمَةُ، إِنَّ كُنْتَ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَعْلَمُ أَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، فَلَا تَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّهَادَةِ» ثم إقدامه على قتال الأعداء حتى استشهد.

فهذا الصحابي الجليل الذي غامر بنفسه وضرب في نحر العدو وحده وهو يناشد سلمة بن الأكوع ﷺ أن لا يحول بينه وبين الشهادة كان يتمتع بالشجاعة الفائقة والمغامرة الجريئة، وإن كان مردود هذه المغامرة بالنسبة لحصول النصر غير متحقق بنسبة ظاهرة، حيث كان في وضع مكشوف للأعداء، بخلاف ما قام به سلمة بن الأكوع ﷺ من الرماية عن بُعد والاستخفاء حين اللزوم، ولكن الغاية التي سعى إليها الأخرم ﷺ هي طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، وقد لاح له موطن من مواطنها فأراد أن يسارع إليه، وحصل له ما أراد ﷺ.

ولكن هل يُحكم على عمله بأنه لا جدوى منه حيث لم يحقق نصراً للمسلمين في ذلك الموطن بينما حقق بعض النصر للأعداء؟ أم يُحكم عليه بأن له جدوى كبيرة بالنظر لاعتبارات أخرى؟ في الحقيقة أنه مع ما للشهادة من مقام كبير وفائدة عظيمة بالنسبة لصاحبها فإن الإقدام على المغامرة وإرخاص النفوس في سبيل الله تعالى عامل مهم من عوامل الدعوة إلى الإسلام، إذا أن الأعداء يفهمون من هذا التسابق على الاستشهاد أن هناك مبدأً عظيمًا يهيمن على النفوس لا يتوفر لدى غير المسلمين، فيدفعهم ذلك إلى الدخول في الإسلام؛ ولذلك ذكر الله سبحانه في معرض بيان الحكمة من وقوع الإصابة في جيش المسلمين يوم أُحُد: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ولقد قام بطل الإسلام وفارس رسول الله ﷺ أبو قتادة ﷺ - كما جاء في هذا الخبر - بإزالة آثار هذا الانتصار اليسير الذي حققه الأعداء حيث قتل زعيمهم عبد الرحمن الفزاري الذي قتل الأخرم الأسدي ﷺ، وهذا موقف في الشجاعة والتضحية يُذكر لأبي قتادة ﷺ. [التاريخ الإسلامي للحميدي ١٧/٧-١٨].

٦ - إدراك قيمة القوات الخفيفة الحركة:

يقول عميد/ فرج: «ويتلاحظ أن رسول الله ﷺ في هذه الغزوة أمر نفراً من أصحابه بالخروج العاجل في إثر القوم حتى يلحق بهم مع باقي الخارجين، وهذا النفر يمثل ما نسميه في حروب اليوم بالقوات الخفيفة الحركة، ومهمتها الاندفاع في اتجاه العدو بقصد إثارة الفرع بين قواته، وإصابة ما يمكن إصابته منها والتمهيد لتقدم القوات الرئيسية، مما يسهل عليها مهمتها عند لقاء العدو، وهذه المهمة هي ذات المهمة التي قامت بها قوة الفرسان، فقد لحقت بالقوم وقتلت أحدهم، ووضعت يدهم على شطر من الإبل، وأقذت المرأة المخطوفة، مما كان له أثره النفسي على قوات بني لحيان فاشتدت في الهروب.

وهذا سبق عسكري انفرده به تفكير رسول الله ﷺ. [العبقريّة العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٣١٠].

٧ - إثبات صدق رسول الله ﷺ:

يقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر معجزة لرسول الله ﷺ حيث أخبر سلمة بن الأكوع ﷺ بأن القوم قد أضافهم رجل من غطفان، فجاء رجل من غطفان فقال: نَحَرُ لَهِمْ فُلَانٌ جَزَوْراً، وهذا من الإخبار بالمغيبات». [التاريخ الإسلامي للحميدي ١٨/٧-١٩].

٨ - تسخير الإمكانيات في سبيل الله ﷻ:

لقد عُرف سلمة ابن الأكوع رضي الله عنه بالعدو السريع، وهو ما سخره في أحداث هذه الغزوة، وهكذا فإنها «إمكانيات تسخر في سبيل الله، فإذا هي توتى ثمارها، وهكذا يقدم كل مسلم ما عنده وما يحسنه لإعلاء كلمة الله تعالى». [من معين السيرة للشامي ٣٧٣].

٩ - النذر لا ينعقد في معصية:

يقول د/ العيساوي: «من الأحكام المستنبطة من غزوة ذي قرد أن النذر لا ينعقد في معصية ولا فيما لا يملك الإنسان.

والنذر: هو التزام قرينة غير لازمة في أصل الشرع بلفظ يشعر بذلك مثل أن يقول المرء: الله عليّ أن أتصدق بمبلغ كذا، أو إن شفى الله مريضاً فعليّ صيام أيام، ونحو ذلك، ولا يصح إلا من بالغ عاقل مختار ولو كان كافراً. [فقه السنة ٣ / ١٢٠].

وهو مشروع بالكتاب والسنة والإجماع [المغني ١٠ / ٦٧]، أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿يُؤْثِرُ بِالنَّذِرِ﴾ [الإنسان: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلَيُؤْفَكُوا نَذْرَهُمْ وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ١١].

وأما السنة، فروت السيدة عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ». [البخاري ٦٦٩٦، ٦٧٠٠]، وأبو داود (٣٢٨٩)، والترمذي (١٥٢٦)، والنسائي (٣٨٠٦، ٣٨٠٧، ٣٨٠٨) كلهم في الأيمان والنذور، وابن ماجه في الكفارات (٢١٢٦)...

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ - قَالَ عِمْرَانُ: لَا أَذْرِي ذَكَرَ ثِنْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا بَعْدَ قَرْنِهِ - ثُمَّ يَحْيَى قَوْمٌ يَنْذُرُونَ وَلَا يَقُونَ، وَيَحْنُونُ وَلَا يُؤْمِنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ» (المعنى أنهم يحبون التوسع في المأكَل والمشرب التي هي أسباب السمن وقيل غير ذلك). [البخاري في الشهادات (٢٦٥١)، وفي المناقب (٣٦٥٠)، وفي الرقاق (٦٤٢٨)، وفي الأيمان والنذور (٦٦٩٥)، ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٣٥)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٨٠٩)].

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه نَذَرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ يَعْتَكِفَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ - قَالَ: أَرَأَاهُ قَالَ - لَيْلَةً، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْفَ بِنَذْرِكَ». [البخاري في الاعتكاف (٢٠٤٣)، وفي الأيمان والنذور (٦٦٩٧)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٣٢٥)، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٣٩)، وغيرها].

وأما الإجماع: فقد اجتمع المسلمون على صحة النذر في الجملة ولزوم الوفاء به. [المغني ١٠ / ٦٧].

والإسلام وإن كان قد شرعه إلا أنه لا يستحبه. [المغني ١٠ / ٦٧، وفقه السنة ٣ / ١٢١].

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ النَّذْرِ، وَقَالَ: «إِنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ»، وفي روايات: «النَّذْرُ لَا يُقَدِّمُ شَيْئًا وَلَا يُؤَخِّرُهُ...»، «إِنَّهُ لَا يَرُدُّ مِنَ الْقَدْرِ...»، «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ»، «لَا تَنْذَرُوا فَإِنَّ النَّذْرَ لَا يُغْنِي مِنَ الْقَدْرِ شَيْئًا»، «لَا يَأْتِي النَّذْرُ عَلَى ابْنِ آدَمَ شَيْئًا لَمْ يَقْدِرْهُ عَلَيْهِ».

[البخاري في القدر (٦٦٠٨)، وفي الأيمان والنذور (٦٦٩٣)، ومسلم في النذر (١٦٣٩، ١٦٤٠)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٨٧)، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٣٨)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٨٠١، ٣٨٠٥)].

وهذا نهي كراهة لا نهي تحريم؛ لأنه لو كان حرامًا لما مدح الموفين به؛ لأن ذنبهم في ارتكاب المحارم أشد من طاعتهم في وفائه؛ ولأن النذر لو كان مستحبًا لفعله النبي ﷺ وأفاضل الصحابة. [المغني ١٠/٦٧].
ويصح النذر وينعقد إذا كان قربةً يتقرب بها إلى الله ﷻ، ويجب الوفاء به من غير خلاف وتركه معصية. [أحكام القرآن لابن العربي ٢/٥٤٩، والمغني ١٠/٦٧].

ولا يصح إذا نذر أن يعصي الله ولا ينعقد ولا يحل الوفاء به إجماعًا. [المغني ١٠/٦٧-٦٩].
والدليل خبر المرأة الغفارية ونذرهما، والذي رواه مسلم في صحيحه، أن رسول الله ﷺ قال: «بَشَسَ مَا جَزَيْتَهَا أَنْ تَحْمَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهَا وَتَجَاكَ بِهَا ثُمَّ تَنْحَرِيئَهَا، إِنَّهُ لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِيهَا لَا تَمْلِكِينَ، إِنَّمَا هِيَ نَاقَةٌ مِنْ إِبِلِي، فَارْجِعِي إِلَى أَهْلِكَ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ».

هذا وأحكام النذر مفصلة في كتب الفقه، ولم أتطرق لها بشيء من التفصيل خشية الإطالة والتكرار.
[فقه الغزوات للعساوي ٣٥٩-٣٦٠].

١٠- فوائد ذكرها الإمام ابن حجر:

قال الإمام ابن حجر:

١- وفي الحديث جَوَازُ الْعَدُوِّ الشَّدِيدِ فِي الْغَزْوِ.

٢- وَالْإِنْدَارُ بِالصِّيَاحِ الْعَالِيِ.

٣- وَتَعْرِيفُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ إِذَا كَانَ شُجَاعًا لِيُرْعَبَ خَصْمَهُ.

٤- وَاسْتِحْبَابُ الثَّنَاءِ عَلَى الشُّجَاعِ وَمَنْ فِيهِ فَضِيلَةٌ لَا سِبَا عِنْدَ الصُّنْعِ الْجَمِيلِ لِيَسْتَرِيدَ مِنْ ذَلِكَ وَحَلَّهُ حَيْثُ يُؤْمَنُ الْإِفْتَانُ.

٥- وَفِيهِ الْمُسَابَقَةُ عَلَى الْأَقْدَامِ، وَلَا خِلَافَ فِي جَوَازِهِ بِغَيْرِ عَوْضٍ، وَأَمَّا بِالْعَوْضِ فَالصَّحِيحُ لَا يَصِحُّ.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ. [فتح الباري لابن حجر ٧/٥٢٩].